الفصل الثامن
المكي والمدني

لمعرفة المكي والمدني سبيلان : النقل والعقل ، والأول أوجه وأنسب ؛ لأن القضية تاريخية تحتاج إلى نقل من عايش نزول النص ، وقد نقل الزركشي عن الباقلاني (٤٠٣هـ) ما ورد في كتابه « الانتصار لصحة نقل القرآن والردّ على نحلة الفساد بزيادة أو نقصان » .

قال : « إنما يرجع هذا لحفظ الصحابة وتابعيهم ، كما أنه لا بد في العادة من معرفة معظمي العالم والخطيب وأهل الحرص على كلامه ومعرفة كتابه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولاً وآخراً ، وحال القرآن في ذلك أمثل ، والحرص عليه أشد ، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول ، ولا ورد عنه أنه قال : اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا ، وبالمدينة كذا ، وفصله لهم »[1] .

نفيد مما سبق أن الأمر سماعي خالص لا يتداخله شيء من الاجتهاد ، فلا بد من المأثور ، ونمثل لهذا بقول عائشة رضي الله عنها : « إن قوله عز وجل : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٦] نزل وهي طفلة في مكة ، وأن سورة النساء نزلت في المدينة وهي في بيت رسول الله ﷺ »[2] .

---

(١) البرهان : ١/٢٤٦ .

(٢) البخاري ، التفسير ، ح (٤٥٩٥) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (٧٩٨٧) .

ومن هذا ما رواه الصحابة من أن الآية : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] نزلت في شأن الأنصار فهي مدنية .

ولكن نضيف إلى كلام الباقلاني في حصره للقضية وقصرها على السماع أن موضوع السورة يساعد على بيان الزمان والمكان ، والذي يقرأ الأنفال يفهم أنها مدنية لكونها تتحدث عن غزوة بدر ، ومن يقرأ سورة الإسراء يفهم أنها مكية ، وههنا باب مفتوح لإعمال العقل لدى الفائدة والاستعانة بالزمان والمكان .

والشيء الآخر قصره آفاق هذه المعرفة على مجرد معرفة ما نزل أولاً وما نزل آخراً كما يكون الأمر لدى الخطباء ، ولعل التسلسل الزمني لازم أكثر في التجربة الشعورية الشعرية لا في الخطابة العقلية ، ثم إن معرفة المكي والمدني ضرورة لسيرورة الدعوة في كل عصر ، وليست ترفاً ذهنياً كما يُتصور من كلام الباقلاني .

والحق أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينصوا على مكية كل الآيات ولا مدنيتها ، وهذا ما فتح باب القياس لتابعيهم وأتباع تابعيهم ، لذلك قال الجعبري (٧٩٦ هـ) : « لمعرفة المكي والمدني طريقان : سماعي وقياسي » .

وقد وردت نصوص تؤكد معرفة الصحابة بالمكي والمدني وتاريخ القرآن على العموم نزولاً ومكاناً وزماناً ونجوماً ونسخاً ، روي أنه جاء رجل من اليهود إلى عمر رضي الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، آية في كتابكم تقرؤونها ، لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأي آية ؟ قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] . فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه

والمكان الذي نزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ في عرفات يوم الجمعة »[1] .

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه لابن عباس رضي الله عنهما : ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ قال : لا ، قال سعيد : فتلوتُ عليه هذه الآية التي في الفرقان : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان : ٦٨] فقال ابن عباس : هذه آية مكية نسختها آية مدنية : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا ﴾[2] [النساء : ٩٣] .

وفي النص الأخير تتجلى معالم المصطلح ، وهذا طبيعي مع مرور الزمن ، لأن ابن عباس من صغار الصحابة الذين أصبحوا أساتذة لمجموعات كبيرة من التابعين .

إن معرفة المكي والمدني مع اتصالها بتوثيق النص وخطورة شأنها لا يرى العلماء أنها فرض عين على كل مسلم ولسنا نذهب مع الزرقاني الذي قال : « ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، فقد يعرف ذلك بغير نصّ الرسول »[3] .

وذلك لأن آيات النسخ قليلة ، وفهم طبيعة مرحلة الإنذار الفكري ضمن الواقع المكي والإفادة منه في نشر الدعوة كلية فوق جزئية النسخ ، فمع كون علوم القرآن جميعاً واجباً كفائياً يقوم به بعض المختصين

---

(١) مسلم ، التفسير ح (٣٠١٧) ، والمسند ح (١٨٨) .
(٢) مسلم ، التفسير .
(٣) مناهل العرفان : ١/ ١٨٩ وراجع في تاريخ القرآن ، د . محمد الدسوقي ، ص/ ١٢٥ .

والمدققين والمتفقهين ويسقط عن الآخرين ، فإن قراءة نص بعيداً عن واقعه تقلل من حجم تأثيره وحجم تجليه المعاصر .

وكان أن قدر عز وجل تلك الهجرة المباركة التي كانت منعطفاً قوياً في مسيرة الدعوة وتحوّل المسلمون حينذاك من مرحلة الإنذار حيث مقاومة الفكر القديم الوثني إلى مرحلة الرسالة حيث بناء المجتمع الجديد .

وإذا كان عز وجل قد مهد بالمرحلة الأولى فإننا نذعن للحكمة الإلهية ، ولا نقول مع الدكتور أبو زيد : « فإن النقلة إلى المدينة حوّلت الوحي إلى رسالة . وكان ذلك إيذاناً بتحول جديد في تاريخ الدعوة ، ومن ثم في حركة النص »[1] .

فهل فهم الدكتور نصر أن النص القرآني قد تأثر بالواقع الجديد وتحوّل عن الإنذار أم يظن أن النقلة حاسمة نوعية ، وأن مرحلة البناء لم يعد فيها إنذار ؟ وهل النص يعتمد على الواقع ، أليس في مفهومنا الإسلامي الواضح بالنقل والعقل أن النص سابق على الواقع ، وما معنى التحول الجديد في حركة النص ؟ هل كان جامداً أم تحرك بطريقة أخرى ؟ عبارات موهومة موهمة .

وننتهي إلى ضرورة العلم بالمكي والمدني لمن يتصدى لتفسير القرآن سواء على الورق أو على المجتمع والعمل به مباشرة ، فهو ضروري لمعرفة النسخ والتفسير الفقهي والتفسير الدعوي ، ضروري لإيجاد أقصى تفاعل مع النص .

ونؤكد هنا كلام النيسابوري محمد بن حبيب (٢٤٥هـ) : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما أنزل بمكة ابتداءً ووسطاً

---

(١) مفهوم النص ، ص/ ٧٧ .

وانتهاءً ، وترتيب ما أنزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني »[1] .

أ ـ معيار المكي والمدني :

ثمة معايير ثلاثة يمكن أن نحدد بها المكي والمدني ، وهي : المكان والزمان ، والإنسان ، والمعيار الأول يفي بأن كل ما نزل في مكة منذ البعثة الشريفة إلى نهاية نزول الوحي هو مكي ولو نزل في المرحلة المدنية .

أما المعيار الزماني فالمكي فيه ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو نزل في مكة ، وما ينزل في الطريق أو خارج المدينة هو مدني لاعتباره الزماني[2] ، وهو الأرجح ، وهكذا يعد ما نزل بمكة عام الفتح مدنياً مثل قوله عز وجل : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] إذ نزلت في المسجد الحرام في مكة عام الفتح . وما نزل بالأسفار بعد الهجرة يعد أيضاً مدنياً .

وأما معيار الإنسان أو الأشخاص فيفي بأن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، والحقيقة أن هذا الرأي كسابقيه لا يسنده الزركشي[3] إلى أحد من العلماء ومنه قوله عز وجل : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] إذ نزل في المسجد الحرام في مكة عام الفتح . ونرى أنه لا يعتد بالمعيارين : المكاني والإنساني لقصورهما الشديدين .

فثمة ما نزل بالجحفة وهي قرية على طريق المدينة وهو قوله عز

---

(١) دراسات ، د . زرزور ، ص/١٤٨ .
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور : ٥/١٣٨ـ١٤٠ .
(٣) البرهان : ١/٢٣٩ وانظر الإتقان : ١/٩ .

وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] ، وما نزل ببيت المقدس وهو قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] .

وما نزل بالطائف قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان : ٤٥] ، وما نزل بتبوك ، قال الواحدي : ثم أنزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾ [التوبة : ٤٢] .

ونزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح : ١] على النبي ﷺ لدى منصرفه من الحديبية[1] ، فهي مدنية .

إذ يلزم ألا يطلق المكي ولا المدني على كل ما نزل بالأسفار في ضواحي مكة والمدينة إذا قلنا بالمعيار المكاني .

ويقال في نقد المعيار الثالث : إن كثيراً من القرآن آيات وسوراً لا يُعدّ خطاباً لأهل مكة ولا خطاباً لأهل المدينة ، فهو عام ، والتقسيم الزمني يذكرنا بعصرنا ويُشركنا أما التقسيم الخطابي الإنساني فيحجّر النص على معاصري نزوله صحابة وكفرة ، فلا شك بوجود خطاب للإنسان عموماً مثل سورة الشمس ، بل إن بعض الآيات هو خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام مثل سور الضحى والشرح والكوثر ، والآيات العامة على أية حال كثيرة لا تحصى .

والجدير بالذكر أن معظم القرآن تنطبق عليه المعايير الثلاثة ، وثمة خلاف على قليل منه ، فكثير من المكي نزل بأرض مكة من حيث المكان ، وخوطب به أهلها من حيث الأشخاص ونزل قبل الهجرة من حيث الزمان .

---

(١) مسلم ، الجهاد ، ح (١٧٨٦) ، والنسائي ، التفسير ، الفتح ، ح (١١٥٠٢) ، والمسند : ١/ ١٢٢ و(١٣٦٦٤) ، وابن حبّان ، البر والإحسان ، ح (٣٧٠) .

ويذكر الدكتور نعيم اليافي رحمه الله معياراً رابعاً هو الموضوع ، إذ يقول : « بل يتحقق إلى جانب المعايير الثلاثة أساس رابع هو جانب الموضوع ، خذوا مثلاً على ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، فقد نزل بمكة إذا التمسنا المكان ، ويوم الفتح بعد الهجرة إذا تحرّينا الزمان ، والغاية منه تذكير الإنسانية بالأصل الواحد والدعوة إلى التعارف إن خلصنا إلى الموضوع ، وهو أخيراً خطاب لأهل مكة والمدينة على السواء إن راعينا الأشخاص ، من أجل ذلك لم يسمِّه العلماء مكياً على الإطلاق ولا مدنياً على التخصيص ، بل أدرجوه في باب ما نزل بمكة وحكمه مدني »[1] .

ونخلص بعدئذ إلى الاحتكام إلى المعيار الزماني لمناسبته لسيرورة الدعوة الإسلامية والإفادة منه في كل عصر ، فهو مناسب لرسم مراحل تطور الدعوة على مستوى النفس والمجتمع ، غير مهمل لأثر المحيط في الفكر ، وهذا ما حدا بالعلماء إلى أن يشترطوا على المفسر المعرفة الدقيقة .

والخلاصة أن معرفة المكي والمدني إن بدت للجاهل ترفاً ذهنياً فإن هذا لا يمنع العاقل من الإقرار بأهميتها في قراءة الكتاب المسطور والكتاب المعمور .

وقد تعسف المستشرق (ويل) سنة ١٨٤٤ عندما قسّم المرحلة المكية على ثلاث ، ونالت نظريته إعجاب المستشرقين (نولدكه) (١٨٦٠م) و(بلاشير) ، فالمراحل ثلاث في مكة ورابعة في المدينة ، وكان يضع أول ما نزل تحت عنوان معين وأوسط ما نزل وآخر ما نزل في مكة ، وكل مجموعة من السور تحت عنوان محدد .

---

(١) محاضرات في علوم القرآن ، د . نعيم اليافي ، ص/١٩ .

ويرى بلاشير أن يجعل القرآن نقطة الانطلاق في تعاقب المراحل الإسلامية وترتيب السور وتدرج التعاليم ، وأن السيرة النبوية كما ترويها أخبار الصحابة لا يمكن أن تستقل وحدها بإيضاح شيء يسكت عنه القرآن ، فمع أن بلاشير يعترف بأن طريقته لا تخلو من تعسّف[1] أو تخبط كما يبدو لنا ، فإن القرآن لا يكفي لتحديد السيرة النبوية ، وليس ما يتفوّه به إلا طعناً في السنة الشريفة .

وما فائدة وضع العلق والمدثر والتكوير والأعلى تحت عنوان النشأة الأولى والإنذار ووضوح الإيقاعات ، ووضع عبس والتين والقارعة والقيامة تحت عنوان الإلحاح على العقائد وذكر البراهين ، ووضع الصافات والزخرف والدخان والسجدة تحت عنوان الطُول والتذكير بالطاعة والإحسان والعمل الصالح مما يمهّد للمرحلة المدنية ؟

أيظن هؤلاء أن الصافات مثلاً تخلو من إنذار ، وأن القيامة تخلو من الدعوة إلى العمل الصالح ؟ . وماذا يقول هؤلاء بإزاء الآية : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] فهو مدني يشبه المكي وهو إنذار لا رسالة ، بخلاف قوله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ ﴾ [هود : ١١٤] فهو مكي يشبه المدني وهو رسالة إذنار ، ونؤكد أن الاختلاف في مراحل المكي اختلاف في الدرجة ، وليس بالاختلاف النوعي كما نجد بين المكي والمدني .

وما الذي توصل إليه هؤلاء ؟ لقد تجاوزوا أمر المكي إلى المدني ، وراح بلاشير يجعل للقرآن المدني مراحل ثلاث متمايزة نوعياً من خلال

---

(١) محاضرات في علوم القرآن ، د . اليافي ، ص/ ٢١ـ ٢٢ .

المضمون ، ثم رأى « أن هناك بعض السور القرآنية ليس فيها ترابط تام بين موضوعاتها ويمثّل لذلك بسورة النور »[1] ، هذه هي الخدمة التي يتفضّل بها المستشرقون الفضلاء للمسلمين الذين لم يغادروا جزئية فما كانوا بحاجة إلى هذا الضلال .

إن ما لهجت به ألسنتهم العفنة بالحقد يصطدم بمسلمات العقل والرواية الصحيحة ، فالمدة التي جهد بها النبي عليه وآله الصلاة والسلام بالدعوة إلى الله ، منذ بدء الإنذار مع آية المدثر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ليس فيها تباين لا في الشكل ولا في المضمون فلا تحول موسيقياً ولا كماً ولا نوعاً ، فالمرحلة متشابهة الجزئيات ، وليس فيها خلافات جوهرية أو ثانوية ، فكلها أصل واحد .

ب ـ مقدار المكي والمدني :

ونمهد للمقادير بمعرفة سبب التسمية من خلال ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما : « إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت مكية ، ثم يزيد الله فيها ما يشاء » فالعبرة في مكان نزول أوائل السورة .

وأضاف البيهقي : « وفي بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها »[2] ، ونمثّل لهذا بسور العنكبوت فهي مكية ، ولكن الآيات الخاصة بالمنافقين نزلت بالمدينة .

وذكر الزركشي « أن جميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة ، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة على اختلاف الروايات »[3]

---

(١) إتقان البرهان : ١/ ٤٢٢ .
(٢) دلائل النبوة : ص/ ٢٣٥ .
(٣) البرهان : ١/ ٢٥٢ .

تلك الروايات التي أولع بها السيوطي فلا نكادَ نجد سورة إلا سجّل قبالتها اختلافاً في مكيتها أو مدنيتها مع ضعف الأسانيد التي يتكئ عليها ، ولا نراها إلا أفكاراً مشوشة .

وعدد السور القرآنية مئة وأربع عشرة سورة ، اثنتان وثمانون يطبق العلماء فيها على أنها مكية كما يطبقون على عشرين سورة مدنية ، ويبقى حيز الاختلاف في اثنتي عشرة سورة يترجح القول عندها بين المكية والمدنية .

أما العشرون المدنية فهي : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنفال ، التوبة ، النور ، الأحزاب ، محمد ، الفتح ، الحجرات ، الحديد ، المجادلة ، الحشر ، الممتحنة ، الجمعة ، المنافقون ، الطلاق ، التحريم ، النصر .

والسور الاثنتا عشرة التي عليها دائرة الاختلاف بين المكية والمدنية فهي : الفاتحة ، الرعد ، الرحمن ، الصف ، التغابن ، المطففون ، القدر ، البيّنة ، الزلزلة ، الإخلاص ، الفلق ، الناس .

ونسبة القرآن المكي ١٩/ ٣٠ من القرآن ، أي يبلغ نحو ثلثي القرآن ، في حين يبلغ القرآن المدني ١١/ ٣٠ في نحو ثلث القرآن على وجه التقريب[١] .

وهذا يبدو لنا إعجازاً يعضد ما ذكر من وجوه الإعجاز ، إذ أصبح عليه الصلاة والسلام في خوف لدى أهل مكة وكان القرآن كثيراً ، وأصبح في أمن لدى أهل المدينة وكان القرآن أقل مما سبق ، ولو كان من عنده

---

(١) راجع علوم القرآن د . عبد الله شحاته ، ص/ ٤٦ـ٤٩ ، وتأريخ القرآن ، د . إبراهيم الأبياري ، ص/ ٧١ .

لاستزاد، خاصة أنه أحيط بمثقفين من أهل الكتاب كما يدّعي المستشرقون.

كما يبدو لنا أن المكي يناسب ضعف المسلمين وعدم استقرارهم، فهو سهل الحفظ بالنسبة إلى طول آيات القرآن المدني، فقصر الآيات وتنغيمها يناسب الضعف البشري وهو مناسب اليوم للمبتدئ والصغير ممن يتصدى لحفظ القرآن، فالمناسبة للمؤمنين قبل كل شيء لا للكفرة.

والاعتبار في التصنيف كما أسلفنا فاتحة السورة، فإذا نزلت بمكة فهي مكية، وإذا نزلت فاتحتها بالمدينة، فهي مدنية، أو يمكن النظر إلى الكم، فإذا غلبت الآيات المكية فهي مكية، وإذا غلبت الآيات المدنية فهي مدنية، ولا يصمد هذا الرأي أمام تصريح ابن عباس رضي الله عنهما بكيفية التصنيف.

وتبعاً لما سبق نجد سوراً مكية فيها آيات مدنية مثل: الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف، وعدد هذه السور خمس وثلاثون سورة وفي سورة النحل المكية نقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وهذا ممكن أو أكيد، لأن الرد على العقوبة لم يتسنّ للصحابة في مرحلة التأسيس الفكري في مكة، فهذا يقال في مرحلة بناء الدولة في المدينة.

ولكن هل نجد في السور المدنية آيات مكية، فاتحتها في المدينة، فكيف يعود الزمن؟ فلا نذهب مع من قال بهذا[1].

ونقرأ على سبيل المثال في سورة إبراهيم المكية الآيتين: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨- ٢٩] وهما مدنيتان والمقصود آل قريش،

(١) خصائص السور والآيات المدنية، ص/ ١٨٣.

وهكذا تنسجم الآيات اللاحقة مع السابقة في السورة .

وذكروا من أمثلة الآيات المكية في السور المدنية سورة الأنفال المدنية ، وقيل : استثنى كثير من العلماء قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، ونسب إلى مقاتل بن سليمان قوله : نزلت بمكة وظاهرها كذلك ؛ لأنها تضمنت ما كان من المشركين في دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله ﷺ قبل الهجرة[١] .

وترد هذه الرواية لسببين في رأينا الأول لكون مقاتل راوياً ضعيفاً عند المحدثين كما ذكرنا في فصل سابق ، والثاني أن همة الكافرين على التثبيت أو الإخراج أو القتل لا تقتصر على حادثة الندوة ، فهمتهم واحدة في القضاء على الدعوة الإسلامية قبل الهجرة وبعدها ، ولا يمنع إذن أن يكون هذا في المرحلة المدنية[٢] .

ومنه في السورة نفسها الأنفال قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] إذ ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت عقب إسلام عمر رضي الله عنه ، والرواية قابلة للنقاش إذ لا يمنع أن يقال هذا في المدينة .

لذلك نقول مع الدكتور فضل حسن عباس : « إن الآيات المكية من السور المدنية أمر نادر ، والذي يظهر أنه شيء لا وجود له ، فلا يعقل أن تنزل الآية في مكة المكرمة ، وأن تبقى سنين طويلة لا مكان لها ، إلى أن تنزل السورة في المدينة المنورة ، ثم توضع تلك الآيات أو الآية أو الآيتان في تلك السورة »[٣].

---

(١) مباحث في علوم القرآن ، مناع قطان ، ص/ ٥٥ .

(٢) في رحاب القرآن ، د . محيسن ، ص/ ١٣٠ .

(٣) إتقان البرهان : ١/ ٣٨٠ .

وثمة سور من فاتحتها إلى خاتمتها لم يتخللها نوع آخر ، فالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة جميع آياتها مدنية ، أما السور المكية الخالصة فهي كثيرة ، مثل : العلق ، المدثر ، المزمل ، القلم وغير هذا .

وليس الانشغال بهذا الطرف مهماً حتى لا نصل إلى اختلاف أو إلى القول بتكرار نزول بعض السور كما ذكروا في النحل والفاتحة وكأن متلقيها قد نسيها وكأنه لا يعرفها من وقت المراجعة !

ويطلع المسلم في أحد الكتب المعاصرة على ثمانية أقوال في تصنيف السور المكية والمدنية والمختلف فيها[1] ، فهذا من دواعي ثقافة التفريق النابعة من الترف الذهني أو التأثر بمقولات وفدت من تلقاء أعداء الإسلام مما يجعل الآخرين يظنون أن هذا العلم مجرد اجتهاد لا سماع .

ونتساءل إذا كان المسلم يقرأ في المصحف وهو لا يعرف اثنتي عشرة سورة إن كانت مدنية أو مكية ، فهل الترجيح يضر بالإسلام ، وما فائدة الضوابط إذا بقينا نردّد اختلاف السابقين ، فأين الموضوع الرئيس في السور والملامح الفكرية ؟

ج ـ الضوابط والخصائص :

والضابط هو الملحظ اللفظي الواضح المتجلي سواء اعتمد على لفظ أو ظاهرة ، ويكون وضوحه أكبر من الخصائص التي هي أصول فكرية عامة وأغراض وأساليب تحتاج إلى تدبر .

والضابط عند الأصوليين حكم كلي ينطبق على جميع جزئياته وهو أخص من القاعدة ، أما الخصيصة فهي الصفة التي تميز الشيء وتحدده ،

---

(١) خصائص السور والآيات المدنية ، ص/ ٥٣ـ ٦٢ .

فالضابط علامة والخصيصة معلم فكري ، لذلك لا تعد الخصائص وسائل حاسمة ، فهي أغلبية لا قطعية كما سنرى .

ضوابط المكي (الإنذار) :

أ ـ وجود كلمة (كلا) :

وقد وردت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية ، وليس في كل السور المكية المتفق أنها فوق الثمانين سورة ، وهي في آيات : مريم : ٧٩ ، مريم : ٨٢ ، المؤمنون : ١٠٠ ، الشعراء : ١٥ ، الشعراء : ٦٣ ، سبأ : ٢٧ ، المعارج : ١٥ ، المعارج : ٣٩ ، المدثر : ١٦ ، المدثر : ٣٢ ، المدثر : ٥٣ ، المدثر : ٥٤ ، القيامة : ١١ ، القيامة : ٢٠ ، القيامة : ٢٦ ، النبأ : ٤ ، النبأ : ٥ ، عبس : ١١ ، عبس : ٢٣ ، الانفطار : ٩ ، المطففين : ٧ ، المطففين : ١٤ ، المطففين : ١٨ ، الفجر : ١٧ ، الفجر : ٢١ ، العلق : ٦ ، العلق : ١٥ ، العلق : ١٩ ، التكاثر : ٣ ، التكاثر : ٤ ، التكاثر : ٥ ، الهُمَزة : ٤ .

والملحوظ أن (كلا) ذكرت في المدثر وهي من أوائل ما نزل أو ثاني سورة ، ذكرت فيها أربع مرات ، وذكرت في المطففين أربع مرات أيضاً ولعلها من الأوائل ، لأنها تناسب زجر الكفرة المعاندين ، وهو عنف كلامي لحقه في المرحلة المدنية عنف جهادي حسي في مرحلة الخطاب اللين .

ب ـ السجدة :

ويقصد بها مكان ذكر السجود ، فكل سورة وردت فيها السجدة هي مكية باتفاق ، وهي أربع عشرة سجدة في ثلاث عشرة سورة ، واردة في

الآيات : الأعراف : ٢٠٦ ، الرعد : ١٥ ، النحل : ٤٩ ، الإسراء : ١٠٧ ، مريم : ٥٨ ، الحج : ١٨ ، الحج : ٧٧ ، الفرقان : ٦٠ ، النمل : ٢٥ ، السجدة : ١٥ ، فُصّلت : ٣٧ ، النجم : ٦٢ ، الانشقاق : ٢١ ، العلق : ١٩ .

ويذكر السيوطي استحباب السجود في سورة ص وليس يعدّ من عزائم الأمور[١] ، وهو يريد الآية ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [ص : ٢٥] للفظ الركوع لا السجود ، والسورة الأخيرة مكية أيضاً . وهو [سجود التلاوة] .

ج ـ القسم :

كل سورة مبدوءة بالقسم وهي خمس عشرة سورة فيها خمسة عشر قسماً ، وهي : الصافات ، الذاريات ، الطور ، النجم ، المرسلات ، النازعات ، البروج ، الطارق ، الفجر ، الشمس ، الليل ، الضحى ، التين ، العاديات ، العصر ، وهذا مجرد البدء فالسور المشتملة على القسم في أثنائها كثيرة مثل ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس : ١ـ٢] ، و﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير : ١٥ـ١٦] .

وقد أخذ المستشرقون على القرآن القسم بالمحسوس من المخلوقات ، ولعل هذا يؤيد في نظرهم ما يقال في تاريخ الأدب من أن العرب حسيون وخيالهم حسي محدود ، وذاك في الشعر فالأمر سهل ، لكن رأوا أن القرآن تأثر بالبيئة الساذجة مكة المكرمة حينذاك[٢] .

وليس هؤلاء المكّيون سُذجاً ، وإلا كيف فهموا البراهين القرآنية ، وخوطبوا بقضايا إيمانية من التوحيد وصفات الله عز وجل وملائكته وسائر

---

(١) الإتقان : ١/ ١١٠ .

(٢) راجع إتقان البراهين : ١/ ٤٩ ومنهج الفرقان ، ص/ ٩٤ .

مخلوقاته الغيبية ، وهذا كله فوق الحسّ ، فلا شك بسموٌ على المحسوسات .

كما أن القرآن المكي أقسم بالمعنويات إلى جانب المحسوسات ، فكلامهم فيه قصور جليّ ، وننظر إلى القسم بالقرآن ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس : ١ـ ٢] ، والقسم بالملائكة ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ [النازعات : ١] ، والقسم بالنفس الناطقة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس : ٧ـ ٨] ، والقسم بحياة النبي ﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر : ٧٢]، والقسم بذاته عز وجل : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر : ٩٢] ، بل أقسم القرآن بما وراء المحسوس ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة : ٣٨ـ ٣٩] . بل إن الزمن الذي له تجلٍّ فيزيقي هو معلوم مجرد يقسم به ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ .

فإذا نظرنا نظرة إجمالية نجد أن القسم بالمحسوسات أكثر من القسم بالمعنويات ، وهذا طبيعي ، لأن إحكام الخلق وتمام الصنعة مما يدل على إعجاز لا يتضح في المعنويات ، فضلاً عن تجلي تمام النعمة في المحسوسات وتسخيرها لسيد الأرض الإنسان ، ومنافذ الحس متعددة هي الحواس ، ومنفذ المجرد واحد وهو العقل .

ولعل مأخذ المستشرقين متأثر ببساطة بعض التفاسير التي تذكر فوائد للتين والزيتون ، كما ذكروا فائدة طبية للخمر وهذا تقصير ، لذلك نستأنس بقول الشيخ محمد عبده : « لما يذكّران بالحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر ، فالتين إشارة إلى الإنسان الأول الذي استظل بها ، والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام الذي أتاه طير بورقة زيتون دلالة على سكن غضب الله بعد الطوفان ، وطور سينين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية بعد تفشي الوثنية ، والبلد الأمين إشارة إلى

تكريم الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام »[1] . ويستحسن العودة إلى كتاب « التبيان في أقسام القرآن » لابن قيم الجوزية لمزيد من أسرار القسم القرآني .

د ـ الحروف المقطعة :

كل سورة فيها استفتاح بالحروف المقطعة هي مكية ، وهي :

الأعراف (آلمص) ، يونس (الر) ، هود (الر) ، يوسف (الر) ، الحِجْر (الر) ، مريم (كهيعص) ، طه (طه) ، الشعراء (طسم) ، النمل (طس) ، القَصَص (طس) ، العنكبوت (الم) ، الروم (الم) ، لقمان (الم) ، السجدة (الم) ، يس (يس) ، ص (ص) ، غافر (حم) ، فُصّلت ، السجدة (حم) ، الشورى (حم عسق) ، الزخرف (حم) ، الدخان (حم) ، الجاثية (حم) ، الأحقاف (حم) ، ق (ق) ، القلم (ن) .

وعددها ست وعشرون سورة هي مكية ، ويستثنى من هذا الضابط ثلاث سور مدنية هي : البقرة (آلم) وآل عمران (الم) والرعد (المر) والأخيرة فيها اختلاف والمرجّح أنها مكية ، وهذه الحروف جاءت في عدد من السور على قدر عدد الحروف الهجائية تسعة وعشرون حرفاً ، وعددها في المقطعات نصف الهجائية ونصف حروف كل صفة من صفات الحروف ، فنصف حروف الهمس ونصف حروف الجهر وهكذا .

وزعموا أن القرآن افتتح بعض السور بألفاظ مبهمة لم يفهمها حتى المفسرون ، ويُردّ على هذا التقول الباطل ، بأن كثيراً من العلماء ذهبوا إلى أنها أسماء للسور ، وذهب بعضهم إلى كونها دلالة على الإعجاز ،

---

(١) تفسير جزء عم ، ص/ ١١٩ بتصرف للاختصار .

لأن القرآن مركب من جنس هذه الحروف ، كما تعد أدوات تنبيه ليفرغ المستمع إلى ما يليها ، فهل هذه تخلو من معنى ؟

وهناك من ذهب إلى غير ذلك مثل سعد عبد المطلب في كتابه « الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم » كاتب أزهري ، فسر هذه الحروف على أنها كلمات فرعونية ، فتمحل وضل ، وكاد أن يُضلّ ، لولا أن صدرت فتوى في المجمع الفقهي بالرياض تبين خروج الكاتب عن الملة الإسلامية وتدعوه إلى التوبة ، وهو كتاب خطير لشيوعه في أوساط أنصاف المثقفين أما المثقفون فيسهل عندهم الرد عليه من خلال اللغة والمعين الديني .

وتطاول المستشرق جرجيس سايل الانكليزي[1] ، فزعم مسرفاً على سبيل الحدس أنها أحرف وضعها كتاب الوحي اختصاراً من قولهم : أوعز إلى محمد ، وذلك على حد ما وضعه بعض كتابه من اليهود كهيعص برأس سورة مريم اختصاراً من قولهم بالعبرانية « كهيعص » أي هكذا أمر .

ولكن هذا تخرّص وفكر رخيص وأراجيف كفرة ، إذ لم يثبت في تراث المسلمين ولا في تراث غيرهم أن النبي عليه الصلاة والسلام اتخذ أحداً من أعدائه اليهود كاتباً للوحي ، وهل يؤتمنون على القرآن وقد حرّفوا التوراة وقتلوا الأنبياء ، إنه قتل للأفهام والأجسام .

وثمة حجة لغوية موضوعية خالصة ، إذ لم يثبت في أي لغة عبرية أو غيرها أن هذه المقطعات تعني أوعز إلى محمد ، ويتضح عبث الصبيان في أن فاتحة سورة مريم لا تقرأ على النحو الذي يذكره (كهيعص) فالمتواتر (كهعيص) ، ثم أين اليهود لدى نزول سورة مريم المكية وهم

---

(١) مدخل ، د . أبو شهبة ، ص/٢٤٨ـ٢٥٠ .

في المدينة ؟ لذلك نقول له مع النبي ﷺ : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

وادعى هؤلاء أن الحروف المقطعة رموز لمصاحف الصحابة ، واستقى هذا الرأي المعوج عميد الأدب الدكتور الفهامة طه حسين ، ولم يتذكر معهم على ثقافته العربية أن التواتر نقل لنا رواية كلمة واحدة عدة روايات وقراءات ، أكان الصحابة عاجزين عن تجريد القرآن من هذه الحروف لو كانت غير قرآن ، وهل يظنّ أن كل صحابي احتفظ بمصحفه حتى تناقله الناس برموزه ، هذا هراء ، وكفر بالدين وكفر بقواعد البحث العلمي .

هـ ـ آدم عليه السلام :

كل سورة وردت فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية حيث رفض السجود ثم الإغواء والخطأ ، والهبوط من الجنة ، وهي : الأعراف ، الإسراء ، الكهف ، طه ، باستثناء سورة البقرة المدنية فقد وردت القصة فيها .

و ـ عبارة « أيها الناس » :

وقد روي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله : ما كان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أنزل بالمدينة وما كان : ﴿ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فبمكة[1] .

يستثنى من هذا الضابط موضعان في البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : ٢١] ، و : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة : ١٦٨] ، وأربع مواضع في النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء : ١] ، و : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ [النساء : ١٣٣] ،

---

(١) المستدرك : ٣/ ١٨ ، والبرهان : ١/ ١٨٩ـ ١٩٠ .

و : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النساء : ١٧٠] ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ ﴾ [النساء : ١٧٤] .

والعلاقة بين « أيها الناس » و« أيها الذين آمنوا » علاقة عموم بخصوص ، فالأولى ممكنة لكل مخاطبين بمكة أو المدينة ، أما الثانية فلا تقع إلا في المدينة حيث مجتمع المؤمنين بخلاف الحال في مكة .

ومن الضروري التنبيه على أن ما ذكر من ظواهر لا يشتمل كل السور المكية ، وهذا لم يلفت نظر الدارسين ، فعلى سبيل المثال المعارج والفرقان والكهف والأنبياء والزمر سور مكية وليس فيها هذه العلامات . لذلك نقول : إن كلاً من الضوابط والخصائص استنتاج أغلبي لا كلي محتم . فثمة سور مكية تكثر فيها سمات وتقل في المدينة لكننا لا نعدم وجودها ، كذلك ثمة سمات مكية كثيرة في سور مدنية كذلك يلزم من الضابط غلبة الاضطراد .

خصائص القرآن المكي :

١ـ الجهاد الفكري :

الإنذار الفكري المنصب في قضايا العقيدة والأخلاق الإنسانية العامة والعادات ونماذج الأمزجة ومفرزاتها ، وكان من الحكمة الإلهية أن يتبع القرآن سبيل التدرج للتغيير ، فيبدأ بالفكر حتى يرتقي إلى مجال التشريعات .

وهذا درس يفيد منه الدعاة ، فالمعركة الفكرية ثلاث عشرة سنة والمرحلة الجهادية عشر سنوات ، فيجب البناء الفكري الراسخ قبل الفقه ودقائقه ، فلا نهوّل على الناس حتى لا يضطربوا بين الأوليات والثانويات .

ووافق التطور الفكري في الموضوعات تطور أسلوبي مما ساعد الدعوة على خطوات ثابتة لنسف الفكر القديم بكل تجلياته إلى أن « تدرج الموضوع مع الأسلوب كما تدرج الأسلوب مع الموضوع حتى صار تشابكهما معاً وملاءمة بعضهما لبعض في جملة من السمات هو سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم »[1] .

إذ لزم هذا الموضوع أن تكون الآيات والسور قصيرة ، ويكثر التعبير بالموسيقا اللفظية لقرع الآذان إلى هذا الجديد ، هكذا كثرت الفواصل وكانت قصيرة على الأغلب ، وكثرة التجسيم ووسائل التوكيد بالقسم وغيره من أمثال وصور وحركات وقصص .

ولا يعني هذا أن البلاغة منصبة في القسم المكي ، فعلى الأدباء أن يتذوقوا القسم المكي ، وعلى المشايخ أن يتفهموا القسم المدني ، وكأنما لا مجال للجمع بين الوعي الجمالي والوعي العلمي ، أو الاقتران بين الإثارة والإفهام ، لذلك ندعو إلى ذكر شواهد فنية من القرآن كله وعدم الاتكاء على شواهد السابقين حتى لا نكرر أو نؤكد قصور البلاغة على المكي ، فلنقتد بالمرحوم محمد عبد الله دراز الذي درس البقرة فنياً .

فكانت الأشكال الفنية المكية مناسبة للموضوعات والمواقف وهذا لا يعني وجود أشكال فنية مدنية تناسب موضوعاتها ومواقفها ، ونختار أسلوب القصر والطول فالقصر « مظهر إيجاز ، وهو مظهر رقي المخاطب ، وآية فهمه وذكائه ، بحيث يكفيه من الكلام موجزه ، ومن الخطاب أقصره ، وأهل مكة كانوا في الذؤابة من قبائل قريش ذكاءً وألمعية ، أما حين تنزل آيات التشريع والأحكام على قوم مؤمنين ، فيجب

---

(١) محاضرات ، د . اليافي ، ص/ ٢٤ .

أن تكون هادئة طويلة ، حتى تبين وتوضح »[1] . فأنى يؤفك المتشدقون البعيدون عن العربية والحق .

وقد ذهب ول ديورانت صاحب قصة الحضارة إلى أن بلاغة القرآن الكريم لا تلائم أذواق الغربيين ، وكأنّ حجة الناطقين بالعربية لا تُلقم فاه وتدحضه ، فنراه يقول : « وفي السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوي ، لا يدركه كل الإدراك إلا الملمّون باللغة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لا تلائم ذوق الغربيين »[2] .

فمن جهل هذا الرجل الذي اتضح جهله أيضاً في التاريخ إذ ظهرت كشوفات تنتقض ما حاول توكيده أن ما ذكره من معالم فنية متناثرة أيضاً في القسم المدني ، وأن ثمة جمالاً في النظم يشمل القرآن جميعاً ، وهو يرى أن القرآن المدني خطاب لغير العرب فقط .

وشمل هذا القسم الكلام على التوحيد ، الخلق والبعث ، والجزاء والعقاب ، وإحقاق الإسلام وذكر الملائكة .

قال عز وجل : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة : ٣٦ـ ٤٠] . و : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ـ ٢] .

---

(١) إتقان البرهان ، د . فضل حسن عباس ، ١/ ٤١٣ .

(٢) قصة الحضارة ، ويل ديورانت : ١٣/ ٥٢ .

وهذه التشريعات عامة مقضي بها في جميع الشرائع السماوية ، فهي كليات وفضائل عامة تمثل الكليات الخمس التي ينادي الإسلام وكل رسالة سماوية بالحفظ عليها : (الدين والنفس والمال ، والعقل والنسب) .

كما شمل هذا القسم الأمر بالصلاة والصدقة والمعاملة الحسنة من وفاء وصدق وعفاف، ودعا إلى التمسك بوحدة الأسرة الخلية الأولى للمجتمع، من خلال بر الوالدين وشفعه بصلة الرحم ، ثم دعا إلى العفو والإحسان ، فاتسعت دائرة الحب ، ثم نهى عن الزنا والظلم الجسدي والمالي ، ووأد البنات للقضاء على المتعفّن والتمهيد لمجتمع خال من المظالم .

وخلوّ القسم المكي من التشريع والأحكام زعم باطل يتصل بتهمة استفادة القرآن من أهل الكتاب ، فالتشريع عرض في مكة بصورة إجمالية كلية ، نقرأ في سورة الأنعام : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١ـ ١٥٢] .

ونقرأ في علاج قضية اجتماعية وهي الرق : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد : ١١ـ ١٣] ، قال الدكتور فضل : « لقد بدأ علاج القرآن لقضية الرق مبكراً ، قبل أن تقوم للإسلام دولته ، وهذا خير دليل على عناية القرآن بهذه القضية عناية تامة »[1] .

---

(١) إعجاز القرآن المجيد ، د . فضل حسن عباس ، ص/ ٣١٦ .

٢ـ الدفاع الهجومي :

إذا كانت الفقرة السابقة تمثل البيان في قضايا التوحيد ، فإن الحملة على الشرك والإلحاد تمثل الدفاع الهجومي ، إذ ينطلق الكلام إلى جبهة المعركة الفكرية لبيان سلبيات الطرف الآخر المغرق في الباطل والجهل .

وتبع هذا ولزمه إقامة البرهان على فساد العقيدة القرشية وما يماثلها من انحطاط ، قال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣ـ ٧٤] .

فلا يصح مايتفوه به المستشرقون من أن القرآن المكي يتهرب من المناقشة والمنطق والبرهان ، تبعاً لرؤية قاصرة من جولدزيهر لسورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : ١ـ ٥] ، فثمة استفادة من ثقافة أهل الكتاب في المدينة تجلت في مناقشة الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن من مثل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾[1] [الأنبياء : ٢٢] .

وندفع هذا الاضطراب الفكري بأن أسلوب سورة الكافرون فيه منطق وعلوّ برهان ، لأنه مناسب للحادثة والمناسبة ، إنه تحقق عقلي وليس تهرباً من مناقشة ، وجاء في أسباب نزول السورة ، أن كفار قريش عرضوا أن يعبد محمد عليه الصلاة والسلام آلهتهم سنة مجاراة لهم ومداهنة حتى يعبدوا إلهه تبعاً لقوله عز وجل : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] من قبيل الحرب الإعلامية .

---

(١) انظر : مناهل العرفان : ١/ ٩٨ـ ١٣٢ ، والمدخل د . أبو شهبة ، ص/ ٢٤٠ .

فنزلت السورة سداً لطعنهم في الإسلام وتحقيقاً ليأسهم ، وهذا ليس هرباً من المناقشة ، خصوصاً أنه قامت عليهم الحجج والدلائل في مواضع أخرى ، وتأتي في هذا الموضع موضع الكفر الهجومي الملغي للمناقشة ، تأتي تبكيتاً لهم وتيئيساً ، فليس من القوة أن يغدوا كل الكلام حججاً ، بل ثمة مواقف يتحجر فيها العقل ويهرب من المناقشة ، فماذا يقال له ؟ فمن المنطق العقلي القوي أن تكون هذه الآيات محتوية لموقفها والكلام الهادئ خاتمة لعدة براهين ، كأن تقول لمن كان ملحداً بعد المحاججة : أنت في طريق وأنا في طريق .

ولنقرأ له هذه المناظرة في الأحقاف المكية : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : ٨ـ٩] .

بقي أن نقول : أيها العارف الأكبر إن ماتستدل به على أنه مدني هو مكي من [الأنبياء : ٢٢] .

وقاوم القرآن المكي التقلد وعدّه مصدراً قوياً للضلال وفساد الأمم ، فهو تعطيل للعقل والتقدم ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان : ٢١] .

وقال عز وجل : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف : ٢٢ـ٢٥] .

٣ـ الاستدلال العقلي :

استدل القرآن بالأنفس والآفاق للدلالة على وجود الخالق وما يلزم هذا من حيثيات غيبية ، قال عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وهذه قاعدة تم تطبيقها في آيات كثيرة تفوق آيات الأحكام عدداً ، بل ماأكثر الآيات الداعية إلى الاحتكام إلى العقل أو تذكر العقل ، أو آيات الإعجاز العلمي الذي اكتشف اليوم .

ونقرأ مايعد حججاً تؤكد يوم القيامة والبعث : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍۭ مَّوْزُونٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق : ٦ـ ١١] .

وقال عز وجل : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٥ـ٩٨] .

ونقرأ من البراهين على وجود الخالق قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ : ٦ـ١٦] .

ونذكّر بأن ماورد في القرآن المكي من دلائل عقلية تعتمد على

المشاهدات تؤكد الوحدانية والإيجاد والإمداد وخلق الإنسان والأجرام الدقيقة هائلة الحجم ماهية وفاعلية ، كل هذا في القسم المكي مما يدل على الإعجاز العلمي الواضح في مرحلة ليس فيها « مثقفون » من أهل الكتاب كما يتشدق المستشرقون من حيرتهم حول مصدر القرآن .

٤ـ القصص القرآني :

وقد كثر القصص في القرآن المكي حتى كاد يُعد ميزة له ، لأنه في هذه المرحلة أكثر من المرحلة المدنية ، إذ وجد في سور قليلة مثل قصة موسى عليه السلام في سورة البقرة والمائدة المدنيتين ، وقصة موسى وعيسى عليهما السلام في سورة آل عمران والصف المدنيتين .

وكان للقصة القرآنية في العهد المكي أثر فعّال في تسلية النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام وتثبيتهم بإزاء غطرسة قريش ، لما تروي هذه القصص من أخبار الأمم الغابرة ونضال الأنبياء والمواعظ والعبر ومصائر أهل الكفر الذين هم نماذج شريرة في كل مكان وزمان .

نقرأ مثلاً قصة موسى عليه السلام في سورة غافر : ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٥ـ ٤٦] . ولقد ذكرنا قبل هذا أن القصص تستغرق ثلث القرآن على وجه التقريب .

ويقول أحد الملاحدة اليوم : « وقد اضطر محمد ﷺ في غمرة نضالاته مع الأرستقراطية القريشية ، وإنكارهم وجحودهم لدعوته أن يعزّي نفسه بالأنبياء الذين تعرّضوا لما تعرض له مع أقوامهم »[1] .

وتتجلى آثار القصة في سيرورة الدعوة في مثل قوله تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ

---

(١) البحث عن منقذ ، فالح مهدي ، ص/ ١٨٧ .

كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ١٢٠] ، وفي قصة نوح : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس : ٧٣] .

فهكذا هو الذي يعزي نفسه وكأنه مناضل ثوري يخترع عزاء له من ذاته ، وهل كانت المعركة صراعاً طبقياً ، وهل كان الكفرة في القصص يمثلون طبقة أرستقراطية ، أم هم مجرد طغاة بألوان مختلفة ، ألا يرى هذا أن كثيراً من الأنبياء لا يبدو عليهم الفقر مثل سليمان وداود وإبراهيم فهؤلاء في منظوره أرستقراطيون ، وصراع لوط مع قومه هل يتصل بالمال ؟ ولكن هذا الدعيّ يشرب من كف أستاذه المستشرق الحاقد كارل بروكلمان .

قال أستاذ الكفر بروكلمان الذي تفوح من كلامه النزعة اليهودية : « وهكذا نجده في عهده الأول يكثر من الإشارة إلى قصص هؤلاء الأنبياء ، وإلى قصة موسى بخاصة ، وليس من شك في أن معرفته بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود وحافلة بالأخطاء ، وقد يكون مديناً ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي ، ولكنه مدين بذلك ديناً أكبر للمعلمين المسيحيين الذين عرّفوه بإنجيل الطفولة ، وبحديث أهل الكهف السبعة وحديث الإسكندر »[1] .

ونسي هذا الفهّامة أن أكثر القصص مكية وسورة الكهف مكية بعيداً عن أهل الكتاب ، أما الكثرة من قصة موسى عليه السلام فهو لذلك التشابه بين قصة بني إسرائيل في ظل طغيان فرعون ، ثم تكون الهجرة التي هي منعطف يوازي منعطف غرق فرعون والهجرة إلى فلسطين ، هذا سبب

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، ص/ ٣٩ .

الكثرة في الفراعنة وقريش والتكرار ، وهمة الطغيان واحدة .

قال الدكتور فضل : « ولما قلّت أسباب النزول ، وندرت في القرآن المكي ، عوّض سبحانه وتعالى ذلك بقصص الأنبياء المتحققة في التاريخ كما وردت ، فأفادت قصص الأنبياء من بين ماأفادت هذه الوظيفة في مكة ، كما أدت أسباب النزول تلك الوظيفة في المدينة »[1] .

والجدير بالذكر أن القصص في القرآن المكي كان من الأدلة الساطعة القاطعة بأن القرآن وحي من الله كما ألمحنا سابقاً إلى ابتعاد أهل الكتاب ، ونستند إلى قوله عز وجل : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] المكية .

وقد سرد من أخبار الأنبياء ما يناسب المرحلة المكية ، من حيث دعوتهم لأقوامهم إلى التوحيد والنأي عن الرذائل الاجتماعية ، فما ذكر من قصة إبراهيم وموسى في البقرة ليس فيه حيثية الدعوة إلى التوحيد ، فورد بناء الكعبة من قصة إبراهيم عليه السلام ، وقضايا خاصة بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل ، كذلك قصة امرأة عمران وزكريا عليه السلام في آل عمران المدنية ، ويمكن أن نذكر قصة موسى في سورة المائدة المدنية .

٥ـ أصول الأخلاق :

فقد بسط القرآن المكي قواعد عامة وبديهيات ومقومات أساسية في بناء الإنسان وتحقيق الشرط الإنساني عموماً ، نقرأ عن وأد البنات وبر الوالدين وإكرام الجار ، وطهارة القلب واللسان والصدق ، والرحم ، والظلم ، والقتل والزنا .

---

(١) إعجاز القرآن المجيد ، د . فضل حسن عباس ، ص/ ٩٥ .

نقرأ ماجاء في سورة الإسراء تلك الوصايا العشر التي يُطالب بها كل منهج إنساني في الأرض : ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء : ٢٣-٣٩] .

د ـ خصائص القرآن المدني :

لابد أن نقرر بادئ ذي بدء أن ليس ثمة فصل حاسم بين المكي والمدني مضموناً وأسلوباً ، ويمكن أن يلحظ الدارس أن الأمر قائم على التدرج ، وليس هناك انقطاع تام ، وإلى هذا لفت النظر قديماً العلامة الشاطبي .

يقول : « على العموم ، المدني من السور ينبغي أن يكون منزلاً في الفهم على المكي ، وكذلك المكي بعضه مع بعض ، والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل ، والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي ، كما أن المتأخر من كل واحد مبني على متقدمه ، دلّ على الاستقراء ، وذلك إنما يكون ببيان بحمل ، أو تخصيص عموم ، أو تقييد مطلق ، أو تفصيل مالم يفصّل »[1] .

فالشارع واحد لم يتغير ، ولا يوجد تشريعات جديدة في المدينة ، بل هي مبنية على مانزل في مكة ، إنه التدرج الذي يظهر جلياً من خلال آخر مانزل بمكة مثل سورتي النحل والعنكبوت ، فهما قريبتان في الأسلوب وبعض المعاني مما قد نزل في أول العهد المدني مع البقرة ، وهكذا نتأكد أن الفروق بين الأسلوبين والمضمونين ليست جذرية جوهرية .

وعلى سبيل المثال سورتا « الحجرات » المدنية و« ق » المكية المتواليتان في المصحف ، وهما من حيث الحجم سواء مع أن عدد آيات الحجرات ثماني عشرة آية ، وآيات ق خمس وأربعون آية ، والحجرات تُعالج مشكلات تربوية وتهذيبية ، وتتحدث كما في القسم المكي عن الأسس الثابتة للعلاقات الإنسانية .

أما سورة (ق) فتذكر البعث وتضرب الأمثال تدليلاً عليه ، وتشير إلى مايكون بين قرناء السوء من خصومة يوم القيامة ، وقول جهنم : هل من مزيد ، وتقريب الجنة للمتقين ، وغير هذا من موضوعات مكية لا تختلف كثيراً عما جاء في الحجرات المدنية .

وكذلك يرجع الدارس المتسلح بأساليب العربية وبلاغتها إلى القرآن

---

(١) الموافقات للشاطبي : ٣/ ٤٠٦ .

فيجد أن الأسلوب لا يختلف جودة ، ولا ينخفض ، بل هو تغير بسبب الموضوع الذي يقتضي تغيراً في العرض ، فآية الدين في البقرة وقضايا العقود في المائدة وآيات الجهاد في براءة لا تختلف عن أسلوب قواعد الوحدانية في الشعراء والنمل والأخلاق في الإسراء .

ونذكر من خصائص القرآن المدني :

١ـ تفصيل التشريع :

ونقول بالتفصيل ؛ لأن الآيات المكية اشتملت على إشارات إلى المحرمات فقد جاء في الخمر أنها غير مستحسنة : ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[النحل : ٦٧] .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة : « فإن هذا النص الكريم يشير إلى أن الخمور ليست أمراً حسناً ، لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن ، ولا يقابل الحسن إلا القبيح ، أو على الأقل الأمر غير الحسن »[1] .

وقد فصلت الأحكام العملية في العبادات الصلاة والصوم ، والزكاة والحج ، والمعاملات كالبيوع والعقود ، والاجتماعيات كالنكاح والطلاق والرضاع ، والعقوبات كالحدود والقصاص ، كما هو ملحوظ في البقرة والنساء والمائدة والنور ، وهي آيات تتجاوز الخمس مئة متناثرة عادة في كتب الفقهاء والأصوليين .

وليست كل آية ذكرت فيها الزكاة مدنية بحجة أن الزكاة فرضت في المدينة ، كذلك ذكر التسبيح ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم : ١٧] ، و﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق : ٣٩]

---

(١) المعجزة الكبرى ، ص/١٨ـ١٩ .

بحجة أن التسبيح يعني الصلوات الخمس ، وهذا غير مقبول ؛ لأن لفظ الزكاة معروف في مكة بمعنى البذل والعطاء ، وليس يقتصر التسبيح على الصلوات[1] .

٢ـ دعوة أهل الكتاب :

نقرأ في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٩ـ ٢٠] .

ولسنا نريد مجرد ذكر أهل الكتاب ، لأنهم كانوا معروفين بهذه التسمية قبل الهجرة ، بل المقصود بميزة المدني الموضوعية دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى دين الإسلام ، وإقامة الحجج عليهم كما هو ملحوظ في البقرة وآل عمران والمائدة ، أي من أوائل العهد المدني .

فنقرأ خطاباً إلى اليهود والنصارى في سورة آل عمران : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٥ـ ٦٧] .

وهكذا نجد أن القرآن المدني قرنهم بالأميين فهم سواء في الكفر ، وليس يقال بعد هذا إن القرآن استفاد من أهل الكتاب في بسط

---

(١) راجع إتقان البرهان : ١/ ٣٨٠ـ ٣٨١ .

التشريعات ، كيف يأخذ القرآن عنهم وقد قرنهم بالحمار ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة : ٥] في العهد المدني نفسه ؟!

ولو كانت هذه المقولة حقاً لساير القرآن أحكامهم أو لأثرت أحكامهم في أهل المدينة قبل الهجرة ولو كانت هذه الفرية الباطلة الساذجة حقاً لأخذوه مطعناً لكونه سرق منهم ، بل الذي رأيناه تسفيه لآرائهم ومعتقداتهم ، وليس يغيب عن ذهن الدارس الموضوعي الحر شمولية التشريع الإسلامي وخصوصية التشريع اليهودي الذي لا يصلح لتشريع عامّ خالد .

وإذا قيل : كانوا في ظل الحكم الإسلامي خائفين من المسلمين ، فالجواب أنه كان في مقدورهم الرحيل إذ لا يُمنعون ، ليحضوا العدو الروماني وغيره بإخبارهم عن السرقة ، ولم يسجل التاريخ أي شيء من هذه الفرية التي لو كانت حقاً لسجل هذا في سجلات تاريخية عند الرومان ، ولكن لا يوجد مايُسجل .

٣ـ وصف المنافقين :

وقد ذكرنا سابقاً أن ذكر القرآن في مقدمة أول سورة في المصحف للمنافقين مايدل على خطورتهم في المجتمع ، وذلك بآيات زائدة على آيات ذكر الكفار ، وقد فضحهم في مواقع أخرى ، وحذر من خططهم ومنهجهم ، وأنزلت سورة تحمل اسم المنافقين فضلاً عما ذكر في سورة براءة ، وتزداد هذه الأيام أهمية النفاق إذ تكثر الازدواجية حتى لا يفرق أحياناً بين العلماء والعملاء .

إن كلام القرآن على المنافقين ليس وثيقة قديمة لمجموعة من المنافقين واليهود على رأسهم فهو ليس تسجيلاً لحدث عبر ، إنما هو تقرير لأصول نفسية وصفات خاصة بشريحة المنافقين لا تغادرهم في كل

عصر وكل مكان ، فهم كما يقال في فن القصة : نماذج معينة للشر المخصوص بالقوة الخفية .

٤ـ العلاقات الدولية :

وهذا ماتمتاز به الآيات المدنية بعد أن تأسس البناء الاجتماعي السياسي في المدينة حيث الاستقرار والتشريع وإقامة الحدود ، ثم كانت للدولة علاقات بدول أخرى ، فأنزل عز وجل مايفيد من تشريعات مناسبة متعلقة بالحرب والسلم والمعاهدات والغنائم والأسرى كما هو ملحوظ في البقرة والأنفال وبراءة والقتال والفتح والحشر ، وفي كتب الفقهاء تجد الكثير من هذه الآيات التي بني عليها رأي المجتهدين ، ولا تزال هذه الآيات وإلى جانبها اجتهاد العلماء أصولاً ثابتة في القانون الدولي اليوم .

٥ـ الجهاد :

نريد بالجهاد هنا النوع المسلح الذي قد بني على صحة الفكر ثلاث عشرة سنة ، وعلى النظر إلى الواقع الذي واءم الجهاد بالسلاح بعد الجهاد الفكري ، إذ لا يوجد في العهد المكي دعوة إلى السيف وإنما كان الصبر والمحاسنة مهما تطاول العدو وتفنن في أساليب القمع والسباب والضرر والقتل ، فلم يكن ثمة قتال لا على مستوى الأفراد ولا على مستوى الجماعة .

ونبين أن كل آية قد أمرت المسلمين بالجهاد هي مدنية ، وليس كل سورة ذكر فيها الجهاد ، فمن القرآن المكي قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] عند الأكثرية هي مكية ، بل المقصود مادعي بآيتي السيف : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج : ٣٩ـ ٤٠] .

وليس امتناع الجهاد في مكة دالاً على ضعف المسلمين فحسب ، يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : « عدم مشروعية الجهاد القتالي قبل الهجرة ، لم يكن لضعف المسلمين كما ظن البعض ، ولكن لأن المسلمين لم يكونوا يتمتعون بعد بشيء من تلك الحقوق الغالية والمطموع فيها ، والتي تحتاج إلى حرز جهادي تحصن في داخله ، وإنما كان الذي يملكونه آنذاك ديناً من العقيدة والسلوك واجبهم التعريف به والدعوة إليه والصبر والمصابرة على أية أذى ينالهم في سبيله »[1] .

هـ ـ ردود على شبهات :

١ ـ العنف المكي :

يدّعي بعض المستشرقين[2] ومن يمجدهم أن القسم المكي يمتاز بالعنف والشدة والقسوة والسباب والوعيد والتهديد ، أما القسم المدني فيمتاز باللين والوداعة والمسالمة وهذا في نظرهم ناتج عن معايشة مثقفي أهل الكتاب في المدينة .

إن القرآن المكي كله ثقافة واستنارة مادام يخاطب العقل والشعور ، ولا بد فيه من القسوة والعنف تجاه الكفرة وتعنتهم وتجبّرهم ، وكيف لا يكون مَعيناً ثقافياً ، وقد تكلم على الغيب والوحدانية والملائكة والكتب والرسل .

أيستكثر هؤلاء المُجرمون قسوة : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد : ١] أو

---

(١) الجهاد ، د . البوطي ، ص/ ٧٩ .

(٢) راجع مناهل العرفان ، ١/ ١٩٨ـ ٢٣٢ ، والمدخل لدراسة القرآن ص/ ٢٣٥ـ ٢٤٥ . وإتقان البرهان : ١/ ٤٠٨ـ ٤١٤ ، وعلوم القرآن د . عتر ، ص/ ٦٨ـ ٧١ ، وخصائص السور والآيات المدنية ص/ ٢٣٥ـ ٢٣٧ ، وعلوم القرآن د . محمد أحمد يوسف القاسم وآخرين ، ص/ ١٠٠ .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : ١٣] وهل عامل ذووهم الكفرة أمتنا باللين ؟ وهل في هذا سباب ترفع جرائم الهمجية والمدنية عنه ؟

وقد اشتمل القرآن المدني على الشدة التي يتطلبها الموضوع ، قال عز وجل في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٤] .

ونقرأ في آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٠] ، وفي النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء : ٤٧] وغيرها كثير .

بل نجد في القسم المدني غاية الشدة والتخويف ، ولا نسميه عنفاً كما يتبجّح أولئك الكفرة أحفاد أبي لهب وحيي بن أخطب وعبد الله بن سبأ ، جاء في تحريم الربا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨ـ ٢٧٩] فقد قرن الربا بالكفر وجعل تركه من شروط الإيمان ، ثم هددهم وهم المؤمنون بالحرب ، فكيف يخاطب الكفرة باللين ؟!

ومثله جاء في الأنفال المدنية : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

قال عز وجل في الربا أيضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٠ـ ١٣٢] .

وينقل الزمخشري عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه : « كان أبو حنيفة رحمه الله يقول : هي أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه »[1] .

ومع هذا نجد في القسم المكي اللين والرحمة والعفو ، كما جاء في سورة فصّلت : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصّلت : ٣٣ـ ٣٥] .

وجاء في السورة ذاتها عن الكفار : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصّلت : ٣٨] .

ونقرأ في سورة الشورى المكية : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٣٦ـ ٤٣] .

بل ثمة دعوة إلى السلم كافة على مستوى الأمة ، إذ يطلب حقن الدماء والتريث بدلاً من ويلات الحرب ، قال تعالى في سورة الأنفال المكية : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال : ٦١] .

---

(١) الكشاف : ١/ ٤٤٢ .

ويأمر الله نبيه بالعفو أمراً كما في الأعراف المكية : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] والإعراض عن الجاهلية كان بعد هذا صفة لعباد الرحمن كما في الفرقان المكية : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[الفرقان: ٦٣].

ونقول لهؤلاء المدّعين : إن الشدة لا العنف أمر يرتكز على الموقف والشخص المخاطب ، وهذا من تمام الحق ومن غاية البلاغة ، ثم إن الدعوة إلى الجهاد ترجّح وجود العنف في القسم المدني لا المكي ، فهل يوجد في الأرض أقسى من السلاح ؟

٢ـ ترّهات المعين اليهودي :

لقد حار المستشرقون في إعجاز التشريع القرآني ، فراحوا يلتمسون له مصدراً أرضياً يغطي ملامح الكفر بالرسالة الإسلامية ، فرأى هؤلاء بجهالة وحقد أن القسم المدني انفرد بالتشريعات التي خلا منها القسم المكي ، فذكر أحكام المواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيع وسائر المعاملات ، استُفيد من البيئة التي اشتملت على التوراة ، مدّعين أن ثمة تغيّراً فجائياً ظهر في دعوة القرآن ، ولا يفسّر هذا التغير في منظورهم إلا بمعارف المثقفين اليهود ساكني يثرب ، وليس هذا فحسب فكل ماجاء من علوم ومعارف عالية مردّه إلى اليهود .

وكنا قد سردنا آيات الأنعام المكية المتضمنة للوصايا العشر ، وهذا يؤكد أن التشريع المدني قائم على أولويات مكية وأصول دينية ماكان ينبغي أن تفصّل في العهد المكي للطرفين : المؤمنين الذين اقتضت الحكمة الإلهية أن يُشغلوا بالبناء الفكري والدعوة إلى التوحيد والأخلاق العامة ، ولا للكافرين الذين رفضوا أساساً العقيدة فلن يتقبلوا تفصيلات فقهية ، بل هي لا تعنيهم في شيء .

ولا يصح عقلاً أن يأخذ المسلمون عن اليهود وقد صرّح القرآن بكفرهم وفسقهم وتحريفهم لكتابهم وقتلهم الأنبياء وطويتهم الفاسدة وخيانتهم ، بل أنكر القرآن أن تكون التوراة الحقيقية بين أيديهم : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٣] ، وذكر التحريف في أكثر من موضع .

وهكذا لو أخذ النبي عليه الصلاة والسلام منهم ، لأنكروا عليه التنصل من المعلم ، إذ كيف يتعلم منهم ويسبهم ويلعنهم ويرميهم بالكفر والفسق والكذب ، فكان موقف القرآن من اليهود موقف المعلم المصحح والناقد الموبّخ والمتحدي لا موقف المتعلم والمستفيد .

والمعروف في أوساط المثقفين أياً كان دينهم أن التشريع الإسلامي عمومي شامل لجميع البشر ، وتشريع اليهود خاص بهذه الفئة الباغية ، فالإسلام يساوي بين الأمم بالحق والعدل وليس عنده مصطلح (شعب الله المختار) ، فالتشريع اليهودي عنصري من حيث الأشخاص ، وموقوت بوقت خاص لا يتجاوز عصره لأنه منسوخ .

وقد شهد المنصفون بتحرير الإسلام للأمم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، فكيف يتربى أشرف الأمم الصحابة الرعيل المبارك على أيدي مجرمين ، وقد شهد المنصفون بأن أعظم أسباب انتشار الإسلام وسرعة فتوحاته هو تلك الأخلاق الكريمة التي تحلّى بها الصحابة رضوان الله عليهم ، وأورثوها لتابعيهم إذ كانت أخلاق المسلمين السبب الأول في دخول الناس في الإسلام لدى أطراف الأرض بعد قرون .

٣ ـ تفاوت الأساليب :

تطاول المستشرقون على أسلوب القرآن ، فنظروا إلى الطول والقصر ، فوجدوا أن قصر الآيات والسور المكية وطول الآيات والسور

المدنية إنما يرجع إلى التأثر بالبيئة ، فالنبي الأمي عليه الصلاة والسلام قصرت فقرات كلامه في القسم المكي لأنه محوط بجهلة ، ولما خرج إلى المدينة اتسعت ثقافته بفضل اليهود فانبسط الكلام ، هكذا رأى جولدزيهر وأقرانه .

والمعروف أن الطول والقصر أمران غالبان ، فنجد في المكي ما هو طويل الآيات والسور مثل سورتي الأعراف والأنعام ، كما نجد قصراً في القسم المدني مثل سورة الفتح ، وأقصر سورة في القرآن وهي الكوثر المكونة من ثلاث آيات في سطر واحد هي سورة مدنية .

إن القصر مظهر الإيجاز الذي كان يناسب القرشيين الذين كانوا أهل فصاحة ، كما ناسب الطول أهل المدينة الذين يحتاجون إلى بسط الكلام ، إذ لم يبلغوا شأو قريش فصاحة وبلاغة .

ونرى أن القصر كما أسلفنا مراعاة لأمر المسلمين الأوائل الذين يحتاجون إلى أوامر سريعة وأن حفظ القصير أسهل من حفظ الطويل ، والأول مناسب لوضعهم القلق وعدم استقرارهم وهم محوطون بتهديد الكفرة وتعذيبهم ، فلا نذهب تماماً مع الدارسين في أن القصر يراعي تلقي الكفرة المحتاجين إلى الزجر ، فثمة آيات كثيرة تخاطب المؤمنين .

وقد تحدى القرآن الكريم العرب قاطبة في بعض السور المدنية كما تحداهم في السور المكية ، وتحداهم في المدينة بسورة واحدة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة : ٢٣] ، في حين تحداهم في مكة بالقرآن كله ثم بعشر سور منه ثم بسورة واحدة ، قال عز وجل : ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء : ٨٨] ، وعشر سور : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود : ١٣] ، وقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود : ١٣] .

ونلحظ هنا (المثل) وفي المدينة (منْ مثل) وهو أخف ، فلو أن أهل المدينة كانوا أقدر على الإتيان بالأطول لكانوا أقدر على المعارضة ولو بأقصر سورة ، بل كان عجزهم أشد من عجز المكيين ، والمتفوّه بهذه الفرية لا علم له بتاريخ الأدب الذي يسجل رفعة الفن عند المكيين .

ونذكّر بأن الخطاب القرآني خطاب للمؤمنين أولاً ، سواء سمعه الكفار أم لم يسمعوه ، فقصر الآيات والسور في القسم المكي لا يدل على مجابهة الكفرة وزجرهم في كل حين ، إذ كانت آيات كثيرة تتحدث عن الجنة وأهلها بل وصف النار يخاطب به المؤمنون للثبات على التوحيد وقدح الهاربين منه ، بل من القصير ماهو موجه للنبي عليه الصلاة والسلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ١ ـ ٢] .

وما دام الأقصر هو الأكثر فإن هذا النهج يعني قلة القول وكثرة العمل في مسيرة الدعوة الإسلامية الصحيحة ، وعلى كل حال القرآن كله مجمل قليل الحجم بالنسبة إلى كتب معروفة في التاريخ الفكري للبشرية مثل الإلياذة وأصل الأنواع والدفاتر الفلسفية ، مما يعني التوجيه الإسلامي إلى الأخذ بالعمل وتقديمه على القول .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية[1] ماينافي الموضوعية والنظر العلمي الحر إذ اشتملت على سموم تنفذ برامج استشراقية استعمارية ، فذكر فيها أن الأسلوبين المكي والمدني مختلفان تماماً ، فالمكي يتصف بالقوة الشعرية والتعبير الحيوي فجاء مقفى مسجوعاً ، أما المدني فآياته مفصلة معقدة نثرية .

وهذا الانقطاع المزعوم يدل على جهالة بأساليب البلاغة ، والدليل

---

(١) راجع إتقان البرهان : ١/٤٠٦ .

أننا نرى الكثير من الآيات المدنية في سور مكية ومع ذلك لا نلمس أي تفاوت أو انقطاع ، بل هذا يجلي الإعجاز البياني حيث الاتساق والانسجام ، وهذا ماجعل القرآن بمنزلة عقد الحبّات وقانون رصين مترابط المبادئ والغايات ، مترابط في إيقاعه الهرموني أيضاً .

وادعى جولدزيهر اليهودي أن السور المدنية انخفضت فيها البلاغة حتى صار نثرها عادياً بعد أن كان معقداً عند غيره ، وهو يستدل بأن حِدّة الوحي قد هدأت وأن البلاغة أصبحت شاحبة[1] .

يقول الدكتور حسن ضياء الدين عتر : « فأما زعمه أن القوة الخطابية للقرآن قد فترت حماستها في المدينة بحكم المسائل والموضوعات التي عالجها ، فليس في هذا دليل على ضعف البلاغة ، بل إن مراعاة مقتضى الأحوال هو عين البلاغة ولُبها ، فلا يصلح قوله دليلاً على انخفاض مستوى البلاغة إلا أن يكون المتصدّر للحكم من أمثال هذا المستشرق ، يعول على قوة إيقاع فواصل الكلم ، دون فهم لباب معانيه ومراميه »[2] .

والحقيقة أن مجرد النظر إلى الفاصلة سذاجة وعين الجهل الذي وقع فيه مسيلمة الكذاب ، وكأن البلاغة كلها في الفواصل ، ثم إن العلماء أخذوا بأولوية إعجاز النظم لاشتماله على جميع القرآن بخلاف وجوه الإعجاز الأخرى ، ومن يعرف شيئاً واسعاً من الفنون الأدبية اليوم يكشف كنوزاً في القسمين المكي والمدني من القرآن على حد سواء .

ونختم الفقرة بالرد على الكاتبة التونسية المتفرنسة « فاطمة المرنيسي » وننصحها بالرجوع إلى كتب تراثنا حتى لا تفهم الحقيقة المنشودة من طرف واحد ، وحتى لا تكون متنصلة من تراث يتبرأ منها ،

---

(١) العقيدة والشريعة ، جولدزيهر ، ص/ ٣٨ .

(٢) بينات المعجزة الخالدة ، د . حسن ضياء الدين عتر ، ص/ ٣٥١ .

لتعسفها هذه الكتب في التأويل ، ولنقرأ ماذُكرته عن أهداف الجهاد في القسم المدني وطبيعته أو تقنيته .

تقول : « لم يكن لدى النبي ﷺ في ظروف أزمة المدينة الحربية في السنوات الخامسة والسادسة والسابعة ، الكثير من الخيار لكي يواجه انعدام الأمن في المدينة ، فإما أن يتحمل ويقبل ويعيش هذا الخطر ، منتظراً ترسخ مصدر السلطة الجديدة لله ودينه في الأذهان ، وإما أن يعاود تنشيط القبيلة كنظام بوليس للمدينة ، ففي الخيار الأول ، يجب العيش بخطر ، بانتظار أن يظهر الله قوته بالانتصار العسكري ، وفي الثاني تضمن القبيلة الأمان مباشرة ، ولكن الله وجماعته يختفيان للأبد ، على الأقل في منظورهما الأصلي ، إن رسالة محمد ﷺ وحلمه في جماعة يكون الفرد فيها محترماً وله حقوق ، ليس لانتمائه إلى قبيلة ، وإنما بكل بساطة قادر على الاعتقاد بأن صلته مع الله كانت تتعلق بالدور الذي كانت القبيلة مدعوة لتلعبه أثناء هذا المظهر الانتقالي »[1] .

هكذا تتبجّح كاتبة عربية ، ولها أن تختار الكفر إذ قال عز وجل : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، ولكن ليس لها أن تشوّه الطرف الآخر متسلحة بحجة واهية وأقانيم بينة من عند المستشرقين ، وما هي إلا ثقافة جاهلة وتتلمذٌ على جهل وذوبان في حقد .

لانقول معها إن انعدام الأمن في المدينة هو الذي يتطلب الجهاد ، لقد زهقت الأرواح في مكة ولم يؤمروا بالجهاد ، إنه الأمر الرباني المتصل بالحكمة العالية ، ولم يعاود عليه الصلاة والسلام نظام القبيلة التي ذابت تحت إعلاء كلمة الله بل قال قولته المشهورة : « دعوها فإنها منتنة »[2] .

---

(١) الحريم السياسي ، ص/٣٢٩ .

(٢) البخاري . التفسير ، ح (٤٦٢٢) .

والمعروف أنه حارب قبيلته وحارب الصحابة أقوامهم .

وليس للقبيلة أي اعتبار في نظر الإسلام سوى الاعتبار المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] على أن التقوى وهي معيار التفرقة والتفاضل ، هي معيار موضوعي لا ذاتي .

ولا يتصف الجهاد بنظام البوليس ، إنه قتال خارجي ، خارج حدود المدينة المنورة ، إن مقولة الإلحاد تستدعي أن يرفض النبي عليه الصلاة والسلام العون الإلهي الغيبي ويرضى بالجهاد المسلّح ، وكيف غاب الله عن هذا الجهاد إلى الأبد كما تتشدق ، وهو فعل بأمر إلهي ؟! ثم أليس من العيب أن تسمي الرسالة المحمدية حلماً وقد أنصفها كثير من الغربيين دالين على انتفاء الانتصار للذات وعلى اقتران العمل بالنبوة ؟

و ـ أبعاد علم الإنذار والرسالة :

فوائد هذا العلم جمة لا تنقضي مع مرور فترة البعثة والصحابة المباركة ، لأن هذا العلم مبحث تاريخي يؤكد إعجازاً من إعجازات القرآن الكريم ، إذ حفظت الأمة تفاصيل دقيقة عن هذا الكتاب مما يعد الحرص على الكتاب ذاته ومتنه مسألة من باب أولى .

وفوق ماسبق ، معرفة هذا العلم تحوزنا على قانون مستمر في المواءمة بين النص والواقع ، فعلم المكي والمدني ليس تاريخاً يسرد على سبيل الترف الذهني ، وليس وثيقة تاريخية قديمة خاصة بغيرنا تروى من غير تأثر ، فلا بد أن يتفاعل معنا ونتفاعل معه ، فنحقق الاستفادة من التاريخ ؛ أي المنهج الفكري المجرّب حتى تستقيم الحياة .

ونعني بهذا فهم التعبئة الفكرية والإعلام ثم فهم مفهوم الجهاد

وحيثياته وشروطه ، والحرص على تربية النفوس وبناء الأسس المتينة ، والعناية بالفرد أساس المكونات الأسرية والخلايا الاجتماعية الصحيحة ، والتوفيق بين الفرد والمجتمع ، وبين الفكر والعمل .

والاستفادة من الزمن ـ أحد عناصر الحضارة إلى جانب المكان والإنسان ـ خير استفادة ، ليكون القانون معنا إعجازاً مستمراً ، وقد ذكروا من الفوائد :

١ ـ فهم النص :

وذلك أمر مقرر أيضاً في دراسة الأدب ، إذ تفيد الأحداث المحيطة بالنص وسياقه في زيادة فهمه وإزالة اللبس والغموض كما تفيد في زيادة التأثير والتفاعل .

فإذا قرأ الإنسان : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون : ١ـ ٦] من غير علم بزمن نزولها يحار في معناها ، وقد يفهم أن المسلمين غير مكلفين بالجهاد ، ولكن إذا علم أنها نزلت بمكة بعد أن حاول الكفار المداهنة ، يدرك أن السورة كانت علاجاً مؤقتاً وردّاً خاصاً ، وليست دليلاً على عدم مشروعية الجهاد الذي ظهر في آيات المدينة المنورة[1] .

وليس الأمر يقتصر على دفع الإشكال واللبس ، بل هو عام ، إذ لا بد من معرفة زمن نزول الآية حتى نفهم مدى مواءمة الواقع لها ، ولا بد أن يظهر مدى الإعجاز في سبق النص ومن ثم احتواء الواقع ، والتعلم من هذا في دعوة الفرد والمجتمع .

---

(١) راجع : من روائع القرآن ، د . البوطي ، ص/١٠٣ ، ودراسات في القرآن د . الحفناوي ، ص/٤٦٢ .

٢ ـ معرفة النسخ :

كان العلماء قديماً يذكرون من فوائد هذا العلم معرفة الناسخ والمنسوخ ، ولكن لا نجد في القسم المكي ماهو منسوخ إلا ماقيل عن : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل : ١ـ ٢] ، فقد نسخ هذا وهو مكي[١] .

٣ ـ التفسير الموضوعي :

وهذا أن تجمع الآيات في موضوع معين وفق زمن نزولها بالترتيب ، وهذا يسهل فهم الموضوعات القرآنية ، وثمة معجم للموضوعات القرآنية ييسر الأمر لدراسة شاملة مرتبة على التسلسل الزمني .

٤ ـ الإعجاز :

وهذا يتجلى في الثقة بوصول القرآن الكريم سالماً من التغيير والتحريف مع تعدد الأمكنة والأزمنة ، ويدل على هذا تناقل الأمة زمن النزول .

٥ ـ التدرج :

تتجلى الحكمة الإلهية العالية في التدرج من الفكر إلى العمل إذ سلك القرآن الكريم على منهج البناء المتأني المتين ، فأصلح في النفوس وحرّرها من براثن العبودية لغير الله عز وجل ، ومن ثم سعى إلى بناء الدولة الإسلامية مشرّعاً الحدود ومقيماً العلاقات العادلة مع الأمم الأخرى .

إن المنهج القويم يقوم على تقديم الأوليات والتدرج شيئاً فشيئاً إلى

---

(١) إتقان البرهان : ١/ ٣٧٠ .

تشريع الثانويات ، وهو منهج حقيق بالنجاح في كل عصر ، هذه هي مسيرة الدعوة الصحيحة .

ونحيل القارئ إلى ماذكره ابن قيم الجوزية في زاد المعاد من أهمية ربط الآية بالزمن الذي نزلت فيه إلى جانب الوقوف على أسباب النزول ، وهذا يتضح جلياً في آيات الجهاد[1] ، كما تنظر تطلعات المعاصرين .

إن ماسرده العلماء في هذا المضمار هو مادة طيبة نصنع منها مايلزم عصرنا ، وإنا لنفتخر هنا بصدق الرواية وجهود العلماء فيها ، حتى نستيقن بقوة القاعدة التي نبني عليها مقومات فكرنا .

ويقول الدكتور نعيم اليافي رحمه الله : « وليس من شك أن هذا الحرص والاستقصاء في آن واحد ، وفي تحرّي ماعسى أن يظهر لبعضهم كأنه غير ذي بال ، مايكون إلا لأن له قيمته الدينية والاجتماعية ، وما كان ليكون إلا لأن له تفسيراً واحداً في نفوس الرواة والعلماء ، إنه صدق الرواية ، وإمكان الثقة بها إلى أبعد حد ، فيما يتعلق بتحديد المكي والمدني في كتاب الله »[2] .

٦ ـ الجبهة الفكرية :

ونعني بهذا الرد على المتنطعين من جهلة المستشرقين وحاقديهم وتابعيهم المتنصلين من ذوي الأسماء العربية . إذ لا يفتأ هؤلاء يرصدون الثغرات المزعومة في أبحاث علوم القرآن ، وعلى الأخص : الوحي ، أسباب النزول ، النسخ ، المكي والمدني ، كل هذا لأجل التشكيك بمصدر القرآن الكريم .

---

(١) انظر : زاد المعاد : ٧/ ١٥٨ .

(٢) محاضرات في علوم القرآن ، ص/ ٢٠ .

ثم إن بعضهم يهتم ، وهؤلاء دارسون عرب بالمكي والمدني والنسخ وأسباب النزول ؛ لارتباط هذه القضايا بالواقع لتدبيج كلام كافر حول أهمية الواقع وتحكمه في النص ، ومن ثم إمكان التحرك في تفسير الكثير من النصوص وفق واقع مخترع زائل ، أو استبعاد الكثير من النصوص لكونها لا تناسب الواقع ، فعلى الدارسين أن يُعنوا بالمكي والمدني لدفع الشبهات الواردة من خارج الحدود ومن بين أظهرنا ، ويقمعوا صيحات الاستشراق والاستغراب ويلقموها الحجر .

* * *